الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: نقد النثر القديم
الاختصاص: دراسات نقدية
السنة: الثالثة ليسانس.
الأفواج: 01 + 02.

تطبيق رقم: 06

أسس الكتابة النثرية صحيفة ابن بشر

صار الاهتمام بالخطابة أكبر حينما أصبحت مقاييسها تدرس وتلق لاكتساب مهارتها والاجادة فيها، فقد مر "بشر بن المعتمر" بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلّم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة، فقال: اضربوا عما قال صحفا، واطووا عنه كشخا، ثم رفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه [1].

تقوم الصحيفة على مناقشة النقاط الآتية:

1-مراتب المبدعين:

يرى بشر أنّ الإنسان يمكن أن يكون في ثلاث مراتب من حيث قابليته الأدبية:

أ-الدرجة الأولى: درجة الحاذق المطبوع، وهو الأديب الذي زوّدته الطبيعة بالذوق الحساس و القريحة الجياشة. فينصحه بشر بن المعتمر مايلي:

"أن يكون لفظك شريفا عذبا و فخما سهلا و يكون معناك ظاهرا مكشوفا و قريبا معروفا.فإن كانت هذه لا تواتيك ولا تسنح لك عند أول خاطر و تجد اللفظة لم تقع موقعها و لم تتصل إلى مركزها ولم تتصل بسلكها قلقة في موقعها، نافرة عن مكانها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن و النزول في غير أوطانها . فإنّك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم و لم تتكلّف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بذلك أحد وإن تكلّفته ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لشأنك بصيرا،عابك من أنت أقلّ منه عيبا و زرى عليك من هو دونك."

ب- الدرجة الثانية: وهي الدرجة التي يكون فيها المتأدّب على مستوى متوسط، و يوصي بشر صاحبها أن يتوخى مايلي :

" فإن ابتليت بتكلّف القول وتعاطي الصناعة ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة و تعصى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ودعه سحابة يومك ولا تضجر وأمهله سواد ليلتك و عاوده عند نشاطك، فإنّك لا تعدم الإجادة و المواتاة إن كانت هناك طبيعة و جريت من الصناعة على عرق."

ج- الدرجة الثالثة : انعدام القابلية، ويوصي بشر الشخص الذي لا يملك الملكة و القابلية الأدبية بما يلي:" فإن تمنّع عليك بعد ذلك مع ترويح الخاطر و طول الإمهال، فالمنزلة الثالثة أن تتحوّل عن هذه الصناعة إلى أشهر الصناعات إليك و أخفّها عليك،فإنّ النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع الرغبة و المحبة."

2- وقت الإبداع و عوامله:

و أوّل اهتمام بشر هو وقت الإبداع، إذ يقول:

" **خُذْ مِنْ نفسِك ساعة نشاطِك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإنَّ قليلَ تلك الساعةِ أكرمُ جوهراً، وأشرفُ حسباً، وأحسَنُ في الأسماعِ، وأحلى في الصدورِ، وأسْلَمُ مِنْ فاحِشِ الخَطاءِ، وأجلَبُ لكلِّ عَيْنٍ وغُرَّةٍ مِنْ لفظٍ شريفٍ ومعنى بديعٍ.**

1- مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازودي العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2009، ص:95.

واعلمْ أنّ ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأَطْولُ، بالكَدِّ والمُطَاولة والمجاهدة، وبالتكلُّفِ والمُعَاودة، ومهما أخطأك لمْ يُخْطِئْك أنْ يكونَ مقبولاً قَصْداً، وخفيفاً على اللسانِ سهلاً، وكما خَرَجَ مِنْ يُنبوعِه، ونَجَم مِنْ مَعْدِنِه."

فهو يستند في تأكيد أنّ للإبداع عوامل،وهي عنده ثلاثة:

1- النشاط

2- فراغ البال

3- إجابة النفس.

فالإبداع يقوم على تخيّر وقت النشاط واستعداد النفس و مطاوعتها ، وهي التي تساعد على إنجاز أفعال في ساعة النشاط وفراغ البال. و ربّ ساعة عمل أعطت أفضل مما يعطيه جهد يوم مع التكلّف و المعاودة.

3- اللفظ و المعنى:

اللفظ و المعنى من قضايا النقد الأدبي المهمّة التي شغلت النقاد و البلاغيين العرب. وقد وقعوا في خلاف كبير، فمنهم من انتصر للّفظ على حساب المعنى كالجاحظ ، ومنهم من ساوى بينهما فرأى أنّ الأدب يقاس بما أحرز مؤلفه من الإصابة في كلّ من لفظه و معناه.

ولّى بشر أيضا اهتماما كبيرا بقضية تخيّر اللفظ البسيط لمناسبة المعنى، دون تعقيد أو تكلّف، سواء أكان في الخطبة أو القصيدة أو غير ذلك من فنون القول.إذ يقول:

"وإيّاك والتوعُّر، فإنَّ التوعّرَ يُسْلِمُكَ إلى التعقيدِ، والتعقيدُ هو الذي يستهلِكُ مَعَانِيَك، ويشينُ ألفاظَك".ففي إنكار بشر للتوعّر والتعقيد ما ينبئ بفهمه لحقيقة الإبداع.فهو يدعو بإلحاح إلى مشاكلة اللفظ لمعناه، أي أنّ المبدع يلبس كلّ معنى كريم ما يليق به من اللفظ الذي تظهر به جودته، فيقول:"ومَنْ أراغَ معنى كريماً، فَلْيَلْتَمِسْ له لفظاً كريماً،فإنَّ حقَّ المعنى الشريفِ اللفظُ الشريفُ، ومِنْ حقِّهما أنْ تصونَهما عما يُفسِدُهما ويهجِّنُهما، وعمّا تَعُودُ مِنْ أجْلِهِ أنْ تكونَ أسوأَ حالاً منكَ قبلَ أن تلتَمِسْ إظهارَهما، وتَرْتَهِنَ نفسَك بمُلابَسَتِهما وقضاءِ حقِّهما." ثمّ يمدّ المبدع بصفات يتحراها في لغته: رشاقة اللفظ وعذوبته، الفخامة و السهولة، المعنى الظاهر والقريب المعروف. فيقول:" كُنْ في ثلاثٍ منازلَ، فإنَّ أولى الثلاثِ أنْ يكونَ لفظُكَ رشيقاً عَذْباً، وفخْماً سهلاً، ويكونَ معناكَ ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمّا عندَ الخاصّةِ إنْ كنتَ للخاصّةِ قَصَدْتَ، وإمّا عندَ العامّةِ إنْ كنتَ للعامَّةِ أردْتَ." فبشر يؤكد أنّ شرف المعنى واللفظ ليس بأن يكون وعرا صعبا أو أن يكون من معاني الخاصة من الناس أو ألفاظهم، وإنما هو بتحقيق الصواب، وإحراز المنفعة. وواضح أن الشرف في هذا السياق لا يعني قيمة اجتماعية أو خلقية، وإنّما يعني قيمة فنية، فيقول:" والمعنى ليس يَشْرُفُ بأنْ يكونَ مِنْ معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضِعُ بأنْ يكون مِنْ معاني العامّة، وإنما مَدارُ الشرفِ على الصواب وإحرازِ المنفعةِ، مع موافقةِ الحالِ، وما يجبُ لكلِّ مقامٍ من المقالِ ، وكذلكَ اللفظُ العاميُّ والخاصيُّ." و الألفاظ الاصطلاحية يجب تجنبها مع الجمهور لأنّها لا يفهمها إلا الخواص وهي لا تؤدّي غرضها مع السامع الذي لا يعرف معناها ولم يأخذ بسبب من الصناعة التي تدور حولها. بحيث يقول بشر: " فإن كنت متكلما أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب أو القصيدة لبعض ما يراد له القصيد فتخطّ ألفاظ المتكلّمين مثل(الجسم و العرض و الكون و التأليف و الجوهر) فإنّ ذلك هجنة."

فبشر يرى أما المعاني و الأفكار يجب أن تتلاءم والموضوع، وهذا يتلاءم و الجمهور أو القارئ، وإلا كانت النتيجة نفور السامع و القارئ إذا لم تكن المعاني مقبولة أو مفهومة ،إذ يقول: " وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازي بينها و بين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلاما و لكل حال مقاما ، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين أقدار الحالات."

فمراعاة مقتضى الحال هو إدراك أحوال المخاطب، ومعرفة قدره ومكانته، و اللغة التي يفهم بها، وتلقى عنده قبولا، فيتمكّن الخطيب من إيصال أفكاره وإقناعه بها. فلا فائدة ترجى من شرف اللفظ و المعنى إذا لم يقعا موقعهما من حيث أحوال المستمعين و مقام الخطاب.

4-الأنواع الأدبية و خصائصها:

يقسّم بشر الإبداع الأدبي إلى نثر و شعر ويقسّم النثر إلى نوعين وهما:الرسالة و الخطبة.

أ-الرسالة و الخطبة: يقول بشر عنهما:" وأعلم أنّ الرسائل و الخطب متشاكلتان في أنّهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل. فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة و العذوبة.ولا فرق بينهما إلا أنّ الخطبة يشافه بها و الرسالة يكتب بها." و يميّز بين الرسالة و الخطبة من جهة والقصيدة الشعرية من جهة أخرى:

- الرسالة يمكن تحويلها إلى خطبة و العكس أيضا، ولا يمكن تحويل الشعر إلى رسالة أو خطبة، و العكس أيضا صحيح، بقوله:" الرسالة تجعل خطبة و الخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة ولا يتهيّأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه و إحالته إلى الرسائل إلا بكلفة،وكذلك الرسالة و الخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة." [2]
- الخطابة و الكتابة تختصّ بموضوع الدين والسياسة ، أما الشعر فمواضيعه غير ذلك، بقوله:" و مما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة أنّهما مختصان بأمر الدين والسلطان عليهما مدار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص، أما الكتابة فعليها مدار السلطان والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين."[3]

ب –الشعر و مميزاته:

يرى بشر أنّ للشعر دور هام في مواضع خاصة لا يمكن للنثر أن يؤدّيها.ثمّ يعدّد خصائص الشعر.1- **الكذب**، فيقول: "وإن كان أكثره قد بني على الكذب و الاستحالة من الصفات الممتنعة والنعوت الخارجة عن العادات و الألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات وشهادة الزور وقول البهتان ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر و أفحله، وليس يراد منه إلا حسن اللفظ و جودة المعنى."[4]

2- الوزن: ومن مميزات الشعر التي يؤكدها بشر هو الميزان الشعري و الموسيقى،في قوله:

"فمن مراتبه العالية التي يلحقه فيها شيء من الكلام النظم الذي به زنة الألفاظ وتمام حسنها،

وليس شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر." [5]

و الموسيقى في رأي بشر التي أكسبته الخلود و سهّلت حفظه،في قوله:" وذلك لارتباط بعض أجزاءه ببعض و هذه خاصة له في كلّ لغة و عند كلّ أمّة، و طول مدة الشيء من أشرف فضائله." [6]

---

[2]- العسكري :الصناعتين، ص 136.

[3]- المصدر نفسه.

[4]-المصدر نفسه، ص137.

[5]-نفسه

[6]-نفسه